

الحقيقة التاريخية والصورة التاريخية

تيسير شيخ الأرض

- الحقيقة التاريخية وصورتها

هناك اختلاف كبير أو صغير بين الحقيقة وصورتها . وهذا يبدو لنا بوضوح بين الحقيقة التاريخية وصورتها التي يقدمها المؤرخ لنا . يقال إن الصورة الفوتوغرافية تختلف عن اللوحة الفنية في أنها أكثر أمانة منها ، في التعبير عن موضوعها الواقعي ؛ لأنها تقدم الموضوع كما هو ، دون زيادة أو نقصان ؛ في حين أن اللوحة الفنية هي مزيج من ذات الفنان والموضوع الذي يعبر عنه . ولكن الصورة الفوتوغرافية تتضمن شيئاً من الذاتية على الرغم من ذلك ؛ فالزاوية والبعد اللذان يلتقط منها المصور الفوتوغرافي المشهد الذي يريد تصويره ، يخلعان شيئاً من ذاتيته وذوقه على هذا المشهد . وإذا كان الأمر كذلك ؛ فكيف يكون وضع اللوحة الفنية ؟

هذا الذي أشرنا إليه بالنسبة الى الصورة الفوتوغرافية واللوحة الفنية ؛ يمكننا أن نجد مثله بين الحقيقة التاريخية وصورتها ؛ بل إننا - كما سرى - لا نغالي إذا قلنا : إنه أكثر من ذلك بكثير ! فإذا شبهنا الحقيقة التاريخية بالصورة الفوتوغرافية ، والصورة التاريخية باللوحة الفنية ، كان لا بد لنا من أن نرى فارقاً كبيراً بينهما . لا شك أن بين الوقائع التاريخية والحقيقة التي يراها المؤرخ عليها ، فارقاً شبيهاً بالفارق بين المشهد وصورته الفوتوغرافية ؛ فهناك قسط من الذاتية لا يمكن إنكاره ، يُضاف إلى الوقائع التاريخية ، ليجعل منها حقيقة تاريخية . وهذا الفارق يضع التاريخ ، بما هو علم ، موضع التساؤل ؛ حتى إن بعضهم شك في قيمته العلمية ، وعده فناً أقرب ما يكون إلى القصة الأدبية ، منه إلى سجل صادق عن حوادث الماضي . ولكن بعضهم الآخر ذهب غير هذا المذهب ؛ وادعى أن بإمكانه أن يحدد الوقائع التاريخية تحديداً موضوعياً ، مستنداً

في عمله هذا إلى الآثار والوثائق التي خَلَمَهَا الماضي وراءه، والتي كان بإمكانه أن يخضعها لقواعد النقد التاريخي، مستعيناً بالعلوم المساعدة المختلفة؛ بحيث يمكنه في نهاية الأمر، أن يضع يده على الحقيقة التاريخية، بمعناها الواقعي. ونحن إذا أعننا النظر قليلاً في هذا المذهب أو ذاك، وجدنا أن هناك مشكلة يريدان أن يشيرا إليها، وهي: ما الحد الذي يمكن للمؤرخ ضمنه، أن يعبر عن الحقيقة التاريخية في الصورة التاريخية التي يرسمها لحقبة من الحقب، أو لنشاط من النشاطات الانسانية؟

لا مراء في أن هناك فاصلاً يفصل بين الحادثة التاريخية كما وقعت في الماضي، والصورة التي صوّرها بها المؤرخ. ولكن، هل نقضي مع أنصار المذهب الأول إلى أنها شبيهة بالقصة الأدبية؛ أو نذهب مع دعاة المذهب الثاني إلى أنها صورة موضوعية عن الماضي؟

إن هذا الفاصل هو الذي يتوجب علينا أن ننظر إليه، وأن نفحص عن طبيعته، لكي نقرر ما إذا كان التاريخ علماً؛ وما إذا كانت الصورة التاريخية هي تعبير صادق عن الحقيقة التاريخية.

ولكي نتمكن من ذلك، لا بد لنا من تحليل الحقيقة التاريخية والصورة التاريخية؛ والموازنة بينهما. وهذا يتطلب منا أن نحدد موقف المؤرخ - بما هو وجدان - بينهما؛ لأن الوصول إلى الصورة التاريخية، يتوقف إلى حد كبير، على معاصرة المؤرخ للحقيقة التاريخية، الذي هو بصدد دراستها والتعبير عنها. ولكنه لا يستطيع ذلك، ما لم يربط بين آفات الزمان في التاريخ؛ فيتمكن من التوجه فيه، من حادثة ماضية تعد ماضية بالنسبة إلى حادثة ماضية أخرى؛ ويرى كيف أن حادثة ماضية تؤثر في حادثة ماضية أخرى، يمكن أن تُعد حاضراً بالنسبة إليها أو مستقبلاً. وهذا يريد حركة التاريخ في الزمان؛ أي الصيرورة التاريخية. وهكذا يرى كيف يمكن التوجه من آن إلى آن، لا من أجل معرفة الماضي فقط؛ بل من أجل أن يتخذ منه درساً يعلمه كيف يمكن التوجه من آن إلى آن في الوقت الحاضر، من أجل صناعة التاريخ في المستقبل، وفقاً للعبارة التي اتخذها من التاريخ في الماضي. فإذا كان التاريخ يعلمنا ما جرى في الماضي، من أجل أن نحكيه في حاضرنَا، ونحن نتوجه نحو مستقبلنا، كان لا بد من الاعتراف بالدرس الجليل الذي تقدمه دراسة التاريخ. فلنبين ذلك كيف يكون!

١ - الحقيقة التاريخية

يبغي المؤرخ الوصول إلى الحقيقة التاريخية. ولكن، ما الحقيقة التاريخية؟ لكي نتمكن من فهمها، لا بد لنا من التوقف قليلاً عند معنى الحقيقة من ناحية، ومعنى التاريخ من ناحية أخرى.

تُفهم الحقيقة بأكثر من معنى؛ ولكن أهم معانيها اثنان:

إن الحقيقة تعني أولاً، القول الذي يكون من المشروع لنا، أن نمنحه تصديقنا الكامل غير المتحفظ^(١). وهذا

يعني، أن هناك حكماً نطلقه على أمر من الأمور في الواقع، ويكون متطابقاً معه تطابقاً تاماً؛

وهي تعني ثانياً، ما له وجود واقعي وما حدث في الواقع، في مقابل ما نحن بصدد الحديث عنه^(٢).

ويكفي أن نتأمل المعنيين قليلاً، حتى نرى بينها فارقاً جوهرياً. فالتطابق مع أمور الواقع، يعني أن هناك شيئاً آخر غير الواقع يتطابق معه. فما هذا الشيء؟ إنه الفكرة: فكرة الواقع كما هي في الذهن، وقد قرنت بالواقع خارج الذهن. وهذا ينتهي بنا إلى أن الحقيقة بالمعنى الأول، تتضمن الذات المفكرة؛ وأنها بالمعنى الثاني لا تتضمنها. فبأي معنى نفهم الحقيقة التاريخية؟

قبل أن نجيب، لا بد لنا من أن نفهم ماذا نعني بالتاريخ. ويمكننا، بادئ ذي بدء أن نعرف التاريخ بأنه علم الماضي. ولكن هذا التعريف واسع جداً؛ فهو يشمل تاريخ الأرض، وتاريخ السماء، وتاريخ الكون... الخ. وفي هذه الحال، نعتقد أن كلمة «تطور» أكثر ملاءمة للتعبير عن المقصود. ولهذا يحسن بنا أن نقصر كلمة «تاريخ» على ما له صبغة إنسانية؛ مثل تاريخ البشرية، أو تاريخ العرب، أو تاريخ أدبهم، أو تاريخ فلسفتهم... الخ. وعندئذ، يمكننا أن نعرف التاريخ مع ريمون آرون، بأنه جملة الصيرورات الروحية والوجودية^(٣). وبهذا المعنى الضيق، يمكننا أن نقول: إن التاريخ هو علم ماضي المجتمعات البشرية؛ على أن نفهم المجتمعات البشرية هنا، من النواحي السياسية والعسكرية والحضارية والثقافية... الخ. وهذا ما عبر عنه كولنجوود بـ «جهود الانسان». يقول بهذا الصدد: «يختلف علم عن آخر، في نوع الحقائق التي يكشف عنها. فما الحقائق التي يكشف عنها التاريخ؟ سأجيب عن هذا بقولي: «جهود الانسان»؛ أعني بها الأعمال التي قام بها الانسان في الماضي. وعلى الرغم من أن هذه الإجابة تثير عدداً كبيراً من الاسئلة، التي يحتمل الجدال حول كثير منها؛ فإن الرد على هذه الاسئلة أمر ممكن، وهي إجابة لا تبطل القضية القائلة: «إن التاريخ هو العلم الخاص بالجهود الانسانية؛ أو هو محاولة تستهدف الإجابة عن الاسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي»^(٤).

ولكن، ما معنى الحقيقة التاريخية؟ لا شك أننا سنفهمها بالمعنى الأول؛ فالحقيقة التاريخية، بمعنى مجموعة الوقائع الانسانية التي حدثت في الماضي، وبصرف النظر عن ذات المؤرخ الذي يدركها، لا وجود لها إطلاقاً؛ لأن هناك دائماً على الأقل، ذات المؤرخ الذي يدرسها، والذي يبعثها من خلال ركام الآثار والوثائق المتبقية في الحاضر، مضمخة بعبير ذاتيته، محاولاً جهد المستطاع، النفاذ إليها وفهمها، بمعاصرتها على نحو من الأنحاء، قبل إحيائها وسردها. ولكن هناك، إلى جانب المؤرخ، ذات القارئ، الذي يدركها هو الآخر، ولكن من خلال سرد المؤرخ لها. فيحاول أن يستشف حقيقة الماضي، من خلال الصورة التاريخية، التي رسمها المؤرخ.

رسمنا نجد أن هناك معاصرة للحادثة التاريخية بالفكر، لا بد منها للمؤرخ، لكي يحولها إلى حقيقة تاريخية أولاً؛ ولحي ينتقل، من بعد، إلى التعبير عنها، في صورة تاريخية ينشئها إنشأه. ولكنها معاصرة لا تنفي البعد

الزمني والتاريخي؛ هذا البعد الذي يمثله حاضر المؤرخ في ابتعاده عما يؤرخ له؛ والذي يجعل من الحقيقة التاريخية صورة تاريخية. وهذا يجعلنا مضطرين إلى الكلام على المعاصرة التاريخية، قبل الانتقال إلى الكلام على الصورة التاريخية.

٢ - المعاصرة التاريخية

ولكن المؤرخ لا يستطيع دراسة الحقيقة التاريخية، من دون معاصرة الحادثة التي يؤرخ لها. ولا بد له من أن ينتقل إلى مكان الحادثة وزمانها، بخياله، وأن ينغمر في أجواء الحضارة والثقافة التي كان ينغمر فيها أبطالها؛ وأن يعايش الأشخاص والجماعات في تقاليدهم وأعرافهم وتفكيرهم وأديهم... الخ. وأن ينفذ إلى عقليتهم وأسلوب حياتهم، ليدرك كيف كانوا ينفعلون ويفكرون ويريدون؛ ويضع يديه على النواضح الحقيقية التي كانت تحرك مشاعرهم وتوجه سلوكهم؛ فيقدمون حيناً، ويحجمون حيناً آخر؛ إذ من دون ذلك، يكون عاجزاً عن القيام بمهمة المؤرخ.

وهنا، تبرز صعوبة من أبرز صعوبات التأريخ؛ إذ كيف يمكن للمؤرخ الذي يعيش في هذا العصر، أن يعاصر حادثة تاريخية حدثت في الماضي؟ سواء أكان هذا الماضي بعيداً أم قريباً! هنا يضطر المرء أن يتوقف قليلاً، موجهاً إصبع الاتهام إلى التأريخ، متسائلاً هل بالإمكان أن يكون علماً إلى حد بعيد أو قريباً!

وإذا أمعنا النظر قليلاً، وجدنا أن الأمر يتعلق بالزمان، يتعلق بالتقاء الآن الحاضر بالآن الماضي؛ بالتقاء الآن التأريخ بآن ما يُراد التأريخ له. هنا نلاحظ أن الزمان وحيد الاتجاه: يتجه من الحاضر نحو المستقبل، محولاً الحاضر ذاته إلى ماضٍ؛ ولا يمكننا أن نجعله ينكفي على عقبيه من الحاضر إلى الماضي، إلا بالخيال؛ لقد تولّى ماضيه، ولم يأت؛ ونحن فوق صهوة الحاضر باستمرار، نودع آنآ كان حاضراً، وأصبح ماضياً؛ لنلتقي بآن آخر، كان ما يزال في ضمير المستقبل، ثم أصبح حاضراً.

ومن هنا، تنشأ صعوبة إقامة علم الماضي، وهي صعوبة لا نجدها في العلم بمعناه الدقيق؛ لأنه تجرد تجرداً لم نعد بحاجة معه إلى مفهوم الزمان. ومرجع ذلك إلى أن ظواهره تتكرر فكأنها حاضرة أبداً. إن قانون سقوط الأجسام ما زال صادقاً، لأن الأجسام تسقط في كل لحظة، وهي ما فتئت تسقط منذ أن اكتشف غاليليه قانون سقوط الأجسام. بل لقد كانت تسقط قبل اكتشافه أيضاً. وهذا يتيح لنا التحقق منه في كل لحظة، في هذه البقعة من الأرض أو تلك، بمعاصرتنا الدائمة لسقوط الأجسام في أي مكان نكون!

ولكن التأريخ وكل ما ينتمي إلى الماضي لا يمكن أن يتكرر، حتى نستطيع التحقق منه. لقد مضى وانقضى، ولا سبيل إلى استرجاعه بما هو هذا الماضي الذي مضى. ولكنه خلف لنا آثاراً ووثائق وراءه، بإمكانها أن تردنا إليه؛ فتمثله من خلال تمثلنا الآثار والوثائق التي خلفها لنا، وبذلك نعاصره على نحو من الأنحاء؛ ومعاصرتنا إياه

تمكّنتنا من إنشائه من جديد .

ومن هنا، كان لا بد لنا من الانتقال من مفهوم الزمان إلى مفهوم المعاصرة؛ إذ إنه لا علم من دون معاصرة . والمعاصرة هي تطابق زمني موجود جزئياً أو كلياً، واقعاً أو خيالياً . ويندر أن يكون التطابق في الواقع كلياً، ولا سيما بين الأشخاص . ولكنه قائم مع ذلك بين الجسيمات الذرية، أو بين كواكب المجموعة الشمسية . فنحن حينما نقول: كان الفارابي معاصراً لسيف الدولة؛ لا نعني أن الفارابي وسيف الدولة ولدا في لحظة واحدة، وماتا في لحظة واحدة؛ بل إن فترة من عمر هذا كانت مقابلة لفترة من عمر ذاك؛ فأدّى تقابلها إلى معاصرة أحدهما للآخر . وتلك هي المعاصرة الجزئية الواقعية بين الأشخاص .

وليس هكذا وضع المعاصرة بالخيال؛ فهي التقاء بين زمانين مختلفين ماضياً وحاضراً، أو حاضراً ومستقبلاً . وهي في التاريخ بين الماضي والحاضر .

ولكن، ما علاقة المعاصرة بالمعرفة والعلم؟ وهل يمكنني أن أعرف شيئاً إن لم أكن معاصراً له؟ وكيف يكون أمر التاريخ، بل كيف يمكنني أن أعاصر حادثة تاريخية مضت عليها فترة طويلة أو قصيرة من الزمن؛ وأصبحت تنتمي إلى الماضي؟

لكي نجيب عن هذه الاسئلة، لا بد لنا من ضرب أمثلة مشخصة، لثلاً نضع في عالم المجردات:

لنبدأ بما يقدّمه لنا علماء الفلك . على الرغم من أن المثال هنا يدل على المعاصرة فقط، دون التاريخ؛ لأن متابعة تاريخ نجم من النجوم، يتطلب متابعة الرصد له باستمرار؛ وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً . والحقيقة، أن ما يراه الراصد في مرصده؛ وهو يرصد نجماً من النجوم، أو مجرة من المجرات، ليس معاصراً للحظة رصده؛ لأن آن الراصد غير آن المرصود؛ إذ إن الراصد يرصد ماضي المرصود لا حاضره . ولهم على ذلك تعليقات وأدلة؛ منها ما يراه الراصد من نجم الشعري اليانية الذي يبعد عن أرضنا حوالي خمسين مليون مليون ميل، والذي يستغرق الضوء (٨,٧) سنوات في قطع المسافة التي تفصل بيننا وبينه ويستنتجون من ذلك، أن ما يراه الراصد « الآن » على الأرض، ليس ما يحدث « الآن » على الشعري اليانية؛ بل ما حدث منذ (٨,٧) سنوات . وهذا يعني، أن « آن » الأرض ليس « آن » الشعري اليانية؛ وأن الراصد - في وقت رصده - ليس معاصراً لما رصده من الشعري اليانية؛ بل بمعنى آخر، هو معاصر له قبل ٨,٧ سنوات؛ وهي المدة التي استغرقتها أشعته في الوصول إلى الأرض .

ولنتنقل إلى مثال آخر؛ ولنأخذ من علم المستحاثات . هنا نجد أن الفاصل الزمني يفصلنا عن حوادث الماضي التي ندرسها؛ ولكنه يقدّم لنا الآثار التي خلفتها وراءها، والتي يمكننا بدراستها ومعايشتها، أن نعاصر العصور التي خلفها . والحقيقة، أن هذا العلم يحدّثنا عن نباتات وحيوانات كانت موجودة على سطح الأرض، في أزمنة

سحيفة؛ ولم يعد لها وجود بين ظهرانيا؛ أو هي ما تزال موجودة على صورة أخرى غير صورتها القديمة. هنا لا بد لنا من أن نتساءل: كيف عرف العلماء بوجود مثل هذه النباتات والحيوانات التي لم يعد لها وجود؟ وكيف عرفوا أن هذه الكائنات الحية وجدت قديماً في صورة غير صورتها التي نعرفها بها؟ فهم يقولون إنهم عرفوها من الصخور الرسوبية التي تحجرت أشكالها فيها؛ والتي نجدها منتشرة في بقاع العالم. لقد طُمرت هذه النباتات والحيوانات إثر كوارث طبيعية اجتاحت القشرة الأرضية؛ فبقيت هيئة هياكلها، بعد أن تحللت موادها العضوية. وما هذه المستحاثات إلا دليل على وجود هذه النباتات والحيوانات التي انقرضت ولم يعد لها وجود، أو التي تغيرت صورها ولم تعد كما كانت^(٥). ويكفي العالم أن يعثر على مثل هذه المستحاثات، حتى يصبح معاصراً للنباتات والحيوانات التي تحجرت فيها؛ أي حتى يصبح معاصراً للعصر الذي كانت منتشرة فيه على سطح الأرض.

ويمكننا أن نضرب مثلاً ثالثاً من علم الآثار. هناك فترة من تاريخ الإنسان، سبقت التدوين، ويسمونها المؤرخون فترة ما قبل التاريخ. وهم يعتمدون في دراستها على الآثار التي خلفها الإنسان القديم ورائه، وظلّت بعده شاهدة عليه؛ مثل الهياكل العظمية أو بعض أقسامها؛ ومثل الأدوات التي كانوا يستخدمونها، كالأواني والحراب والسهام والرسوم. ولقد استطاع العلماء أن يقيموا علم الإنسان القديم؛ وأن يحدّدوا الأصول التي تحدّر منها البشر، من دراساتهم لهذه الهياكل العظمية وأقسامها. وقد قسموا بني البشر إلى سلالات، من خلال قياسهم لأبعاد جماجمهم؛ فكان لديهم ذوو الرؤوس المستطيلة، وذوو الرؤوس المربعة؛ وذوو الرؤوس التي هي بين هذه وتلك. ولقد استطاعوا أيضاً، أن يصوّرُوا لنا حياة هؤلاء وأولئك من دراساتهم الأدوات التي كانوا يستخدمونها؛ ومن معرفتهم المواد التي صنعت منها، أو رسمت عليها. وبذلك أصبحوا معاصرين لهذا الإنسان، على الرغم من الأزمنة الطويلة التي تفصلهم عنه.

وهكذا نرى، أن العلماء يمكنهم أن يعاصروا أحداثاً تنتمي إلى عصور غير عصورهم، سواء أكانت حوادث فلكية جرت على أحد النجوم، أم أحداثاً حيوانية أو نباتية جرت منذ مليون سنة؛ أم أحداثاً إنسانية ترجع إلى ما قبل التاريخ؛ أي إلى ما قبل مئتين وخمسين ألف سنة. إن هذه المعاصرة هي التي تسمح لنا بأن نجعل من التاريخ علماً، لا التاريخ بمعناه الضيق، بل التاريخ بمعناه الواسع الذي أشرنا إليه، والذي يشمل تاريخ الكون إلى جانب تاريخ البشرية. إنه بمعنى من المعاني، علم الصيرورة الذي يقوم إلى جانب علم الوجود.

٣ - الوجدان وتجربة الزمان

وهذا يعني، أن تجربة الزمان أصيلة في فكر المؤرخ، لا يستطيع من دونها أن يحيا الماضي؛ وأن ينشئه نشأة جديدة. ولا شك أن هذا لا يقتصر عليه وحده؛ بل يشاركه فيه القارئ أيضاً؛ وبقدر نجاحه فيه، يمكن أن

يوقظه في نفس القارىء؛ ففي كلتا الحالتين؛ لا بد من تجربة الزمان، من أجل معايشة أحداث التاريخ وأشخاصه وجعاته ومجتمعاته، للنفاذ إلى الماضي الذي كان .

ولكن التاريخ ليس زماناً مجرداً، بل صيرورة مشخصة . والفرق بين الصيرورة والزمان، هو أن الزمان عبارة عن آتات فارغة متشابهة ومتلاحقة، في حين أن الصيرورة حوادث مشخصة متغيرة وغير محدّدة، وهي إذا كانت متلاحقة مثل آتات الزمان؛ ولكنها تخالفها بما تقدّمه من تجدد وإبداع . ولا يختلف التاريخ عن الصيرورة إلا من حيث إنه إنساني وأقلّ شمولاً . والحقيقة، أن الصيرورة هي حركة التغير بما هي حركة تغير؛ أي بصرف النظر عن المتغيرات؛ في حين أن الزمان هو الصيرورة وقد حذف منها التغير؛ فأصبح سيلاً خالصاً . أمّا التاريخ فهو الحالات المتغيرة المتعاقبة التي تمرّ بها الموجودات الجزئية، أي أنه التغيرات التي يمرّ بها هذا الموجود أو ذاك في خلال الزمان . وبهذا المعنى، يكون - كما رأينا - للكون تاريخ . بيد أننا تعودنا أن نستخدم كلمة « تاريخ » للدلالة على التغيرات الواعية التي تمرّ بها البشرية، أو بعض جماعاتها .

بيد أن الوعي يفترض الوجدان، ووعي التاريخ يفترض الزمان . ومن هنا، كان الوجدان التاريخي زمانياً؛ وكانت المجتمعات البشرية - بصيرورتها - تاريخية .

وهذا يعني، أن الوجدان والجماعات البشرية مترزمانان؛ وأن حركة وعي الوجدان وتغير الجماعات مترزمانان؛ وأن التزمّن في أصل التزامن . والحقيقة، أن كل فكرة - حركة الذهن - تزامن حادثة - لحظة من الصيرورة - في ملتحم الوجدان الفردي والوجداني الجماعي . ولكن تزامن الفكرة والحادثة يمكن أن يتحوّل موضوعياً إلى تزامن حادثتين، بالإدراك أو التذكّر أو التخيل أو التفكير . . وبهذا يتمكنّ الفكر من إنشاء فكريّ التعاقب والتزامن . ولكن هذا لا يكون إلا بما هو وجدان أصلاً .

هذه الحقيقة من حقائق الوجدان، هي التي تجعل أمر المعاصرة التاريخية ممكنة . فالمعاصرة والتزامن يفترض بعضهما بعضاً . ولهذا كانت العلاقة وثيقة بين الوجدان وتجاربه التاريخية؛ فتجاربه عموماً تعبّر عنه كل التعبير، ليس في مستوى التجريد فقط، بل في مستوى الواقع المشخّص، بما ينطوي عليه من صيرورة؛ ولا سيّما واقع الجماعة التي يعيش بين ظهرانيها، والانسانية التي ينتمي إليها، من حيث هو واقع تاريخي . وهذا يعني، أن الوجدان موجود، له تجاربه المنثورة على مسار ديمومته؛ وهي تجارب يأخذ بعضها برقاب بعض، في وحدة مستمدة من حياة الوجدان ذاته، التي هي حياة متمترجة إلى حدٍ كبير بحياة الجماعة، وتستمد ديمومتها الذاتية من الصيرورة الإجتماعية .

والحقيقة، أن تصرّف الوجدان بعالمه، تصرّف بزمان هذا العالم، الذي يصبح في الوجدان، زمانية الذاكرة؛ لأن الذاكرة ليست حفظاً أميناً للماضي؛ بل حرية في التصرّف به؛ من خلال حتمياتها الخاصة واهتماماتها

الحاضرة، في سبيل تجميع الماضي في بؤرة الحاضر فكرياً، وجعله عنصراً في مشروعات الوجدان المستقبلية. وهذا وحده كافٍ لبيان الارتباط الوثيق بين الوجدان والتاريخ، الذي ينتهي بالمؤرخ إلى رسم خطوط الصورة التاريخية، ابتداءً من الحقيقة التاريخية. إن كوننا نتمتع بذاكرة، هو الذي يخولنا مواكبة الصيرورة، وفهم الوجود المشخص، في حركته التطويرية أو التاريخية. فالذاكرة تجمع الحوادث الماضية إلى الحوادث الحاضرة؛ وتمكننا من الموازنة بينها، من أجل الكشف عن ماهياتها؛ على الرغم من أنها لا تتلاقى زمانياً. إن الذاكرة هي - من هذه الناحية - في أصل فهم التاريخ.

بيد أن الذاكرة لا تفهم التاريخ من حيث هي ذاكرة فقط، بل تساعدنا على ذلك قوى الذات كلها. وعندئذٍ، فهي لا تتوقف عند استحضاره، بل تتجاوزه إلى صنعه. ومن هنا كانت تجربة الزمان الماضي لا تختلف جوهرياً عن تجربة الزمان المستقبل؛ الأمر الذي يخولنا الانتقال من معاشة التاريخ الذي كان، إلى صناعة التاريخ الذي سيكون؛ لأننا نرى المستقبل دائماً من خلال الماضي؛ مهما حاولنا أن نتصوره مخالفاً له. إنها شيء واحد، لولا أننا نحن بني البشر، نقف بينهما، ونفصل أحدهما عن الآخر!

وهذا يتضمن أن الوجدان تاريخي، وأن بنيته تاريخية، تربط الماضي بالمستقبل من خلال الحاضر، ربطاً يساعد على التوجه في التاريخ، واكتساب التجربة التاريخية. والحقيقة، أنه يتشبث بكل ما يجري في حاضره، وهو ينزلق من الماضي نحو المستقبل، منفتحاً على آفاق العالم، وعلى التجربة الإنسانية من خلال الجماعة التي ينتمي إليها، ومن خلال المكان الذي تسكنه؛ فبواكب ما يجري في الزمان وما يحدث في المكان، منساقاً حيناً مع الصور المتوالية المتغيرة، ومتوقفاً حيناً آخر في سبيل تثبيت بعض الصور في ذاكرته، وتجريدها فكرياً، من أجل وعيها في صيرورتها التاريخية. هذه الصيرورة التي لا تقف عند حدود جماعته ومجمعه، بل تتجاوزه إلى العالم وإلى الإنسانية كلها.

ومن هنا، كان الوجدان انزلاقاً وتوقفاً في آن واحد معاً؛ من تصاليهما وتعانقهما تنشأ التجارب التاريخية، على محور الذات، ضمن العالم، في صورتين: متمازجتين حيناً ومتمايزتين حيناً آخر؛ في ذاتية وموضوعية. وهذا ما عبّر عنه نيقولاوي برديايف، حيناً تساءل عن حقيقة «التاريخي»: «ما «التاريخي»؟ لكي يتمكن الفكر من كشف معناه، يجب عليه أن يمر بنوع من الازدواج لا تتطلبه تماماً التغيرات الهائلة، التي تظل الأذهان في خلالها، غير مكترثة بالمسائل التي يطرحها التاريخ. يجب على الوجدان الإنساني أن يكون خضع لما يشبه الانحلال؛ فعندئذٍ فقط، يصبح التعارض بين الذات والموضوع ممكناً؛ هذا التعارض الذي يسمح بقيام معرفة معمقة ومدرسة للأحداث، وبناء فلسفة ما، بفضل من تفكير سليم»^(١).

وكل هذا، تعبير عن بنية الوجدان الزمانية والتاريخية: إنه حضور دائم في آتات الزمان الثلاثة؛ تتناسك فيه

التجربة التاريخية وفقاً لبناء الخاصة، التي تصب فيها الحوادث، وتملأ ساحتها. إذ إن الوجدان لا يستطيع أن يحيا حوادثه من دون أن يستحضرها إلى حاضره - الذي ليس أناً وهمياً؛ في تجاذب متناوب بين الماضي والمستقبل. بين ما كان وما سيكون، حيث يندمج مجال التصور في زمان التجربة الحية، ويمتلئ الزمان المجرد بالحوادث التاريخية.

ولكن بنية الوجدان الزمانية ليست بمعزل عن تجربته التاريخية، التي تنفذ به أكثر فأكثر، إلى أعماق التاريخ، وترته كيف يرتبط آن بأن في الماضي؛ وتجعله بالاستناد إلى تجربته التاريخية، قادراً على رصف الآتات الماضية، وفقاً لترتيبها في تجربته الوجدانية الحية. فمحل الماضي والحاضر والمستقبل، محل الـ «ما قبل» والـ «ما بعد» الزمانيان والرابطة السببية. هنا، تبدو آتات الزمان الثلاثة - الماضي والحاضر والمستقبل - آتات ماضية جميعاً بالنسبة إلى آن المؤرخ، هذا الآن الذي هو في أصل الانطباع الواضح بانفصاله عن الماضي، على الرغم من معاصرته إياه فكرياً. فهو يستطيع بنقلة فكرية يقوم بها في خلال الزمان، أن يرى كيف يرتبط الماضي بالحاضر؛ وكيف ينزلق الحاضر نحو المستقبل. وهذا يمكنه من الاستفادة من التجربة التاريخية في رسم الصورة التاريخية؛ التي يمكن أن تكون سبيلاً إلى التوجه في التاريخ في المستقبل، فكرياً أو فعلاً.

٤ - الصورة التاريخية

بعد هذا، يمكن للمؤرخ أن ينتقل من الحقيقة التاريخية، إلى إنشاء صورة عنها. ولكن هذه الصورة تحمل من الذاتية أكثر مما تحمل الصورة الفوتوغرافية؛ إنها مزيج من بعض الوقائع التي اختارها المؤرخ ونظمها، ومن ذاتيته في تجاوبها مع هذه الوقائع؛ مزيج من الماضي الذي تمثله الوقائع، والحاضر الذي يمثله المؤرخ. وبهذا الصدد يقول أ. هـ. كار: «ينطلق المؤرخ من انتخاب مؤقت للوقائع، ومن تأويل في ضوءه كان هذا الانتخاب، سواء أقام به الآخرون أم قام به هو ذاته. وفي أثناء عمله، يخضع كل من التأويل وانتخاب الوقائع وتنظيمها، لتغيرات دقيقة، ربما كانت غير شعورية جزئياً، من خلال العمل المتبادل بين أحدهما والآخر. وهذا العمل المتبادل يتضمن تبادلاً أيضاً، بين الماضي والحاضر؛ لأن المؤرخ جزء من الحاضر، والوقائع تنتمي إلى الماضي. فالمؤرخ والوقائع التاريخية يتعاونان بالضرورة؛ إذ إن المؤرخ من دون الوقائع، يكون مقتلع الجذور مشتغلاً بالتوافه، وتكون الوقائع من دون المؤرخ ميتة لا معنى لها. لذلك كان جوابي الأول عن السؤال: «ما التاريخ؟»؛ هو أنه عملية تفاعل مستمرة بين المؤرخ والوقائع؛ إنه حوار لا ينتهي بين الحاضر والماضي»^(٧).

وإذن، فهناك تفاعل بين حاضر المؤرخ وماضي الوقائع؛ عنه تنشأ رؤية الإنسان المعاصر للإنسان الماضي؛ وهي رؤية ممتزجة بانفعالات المؤرخ ومطامحه. صحيح، أن المؤرخ لا يكون مؤرخاً صادقاً، إلا إذا انتقل بكل شخصيته إلى العصر الذي يؤرخ له، وعاشه في أعماق أعماقه؛ وجند له خياله وثقافته وفكره؛ غير أنه بظل يشعر

دائماً بعد يفصله عنه، وهو بعد حضاري أكثر منه بعداً زمنياً؛ وفي هذا ما يجعل الصورة التاريخية التي ينشئها عن الماضي، صورة تحمل سمات عصر المؤرخ الذي رسمها.

بيد أن المؤرخ فرد، له ذاتيته التي لا يمكن الخروج منها كلية؛ مهما حاول أن يكون موضوعياً؛ ومهما بذل من جهد في استنطاق الوقائع التاريخية ذاتها؛ ومهما لجأ إلى العلوم المساعدة لكشف ما يدعي الحقيقة التاريخية؛ ومهما لجأ إلى قوة النقد التي لديه. بل إن هذا بالذات، هو الذي يجعله يعلّق أهمية كبيرة أو صغيرة على بعض الوقائع؛ ويتجاوز بعضها الآخر دون اكتراث. وهذا ما فطن إليه بول فاليري حيناً قال: «لكن، لما كنا لا نقدر على الاحتفاظ بكل شيء؛ ولا بد لنا من التخلّص من خضم الوقائع اللامتناهي، بواسطة حكم على أهميتها النسبية فيما بعد؛ فإن تقرير الأهمية يدخل من جديد في العمل التاريخي، ما حاولنا تجنبه واستبعاده؛ ولا مفر من ذلك. والأهمية هنا ذاتية خالصة... إذ الأهمية موكول لنا تقديرها.»^(٨)

وإذا تأملنا كلام بول فاليري، كان لا بد لنا من التوقّف قليلاً عند عبارته: «بواسطة حكم على أهميتها النسبية فيما بعد». وهذا يعني، أن هناك حكماً يصدره المؤرخ. والحكم وجهة نظر من يحكم على ما يحكم عليه، سواء أبالغ في توخّي الموضوعية أم لا. ولهذا ليس بعيداً عن الصواب أن نقول، إن حكمه قد يختلف في كثير أو قليل عن حكم مؤرخ آخر. ولكن هذا الحكم يقع على الأهمية التي يرجع تقديرها إليه، والتي ربما لا تكون الأهمية ذاتها التي يعلّقها عليها مؤرخ آخر. ومن هنا، كان الحكم على التاريخ حكماً تداخله القيمة إلى حد بعيد؛ بل ربما كان حكم قيمة أكثر من حكم وجود.

وكانت هذه الأهمية نسبية تختلف بين مؤرخ ومؤرخ. ولكن ما يستحق التوقّف عنده حقاً، هو أن هذا يحدث «فما بعد»؛ أي في عصر المؤرخ، وفي الآن الذي يؤرّخ فيه، وفي جملة الظروف الموضوعية والذاتية التي يكون فيها التأريخ. وهذا ما كنّا أشرنا إليه بالبعد الحضاري، أو التاريخي، أو الزماني.

وهذا يتضمّن أن المؤرخ يستخدم حريته في إنشاء الصورة التاريخية التي هو بصدد التأريخ لها؛ وإن تكن هذه الحرية مقيدة بعض التقييد بالوقائع التي تشير إليها الآثار، والتي تتضمنها الوثائق. يقول بول فاليري بهذا الصدد: «كما أن «الماضي» أمر عقلي خالص؛ فما هو إلاّ صور ومعتقدات. لاحظوا اننا نستخدم نوعاً من المنهج المتناقض، لتكوّن مختلف الأشكال عن مختلف الصور: فمن ناحية، نحن في حاجة إلى الحرية في مملكة تحليل حيوات الآخرين والشعور بها؛ ومن ناحية أخرى، لا بدّ من تضيق هذه الحرية، من أجل أن نحسب للوثائق حسابها؛ وأن نضطر أنفسنا إلى ترتيب «ما كان» وتنظيمه، بواسطة قوانا وصور تفكيرنا وانتباهنا. وهذه أمور «في جوهرها حاضرة»^(٩).

وهذا يبيّن بوضوح، أن الصورة التاريخية هي من إنشاء المؤرخ، ابتداءً من مواد أولية هي الوقائع التاريخية،

كما تقدمها له الآثار والوثائق . .

وهذا يميل بنا إلى الاعتقاد بأن التأريخ فعل ، وهو - كونه فعلاً - ينطوي على الحرية ، والحرية اختياراً ؛ وكل اختيار يعني القيمة . وهذا يعني ، أن حرية المؤرخ تنسب بجمية الوقائع التي يؤرخ لها ، والتي يخلع عليها قيمة من القيم ، وفقاً لثقافته وتفكيره .

وهذا يطرح علينا السؤال التالي : هل يمكن للصورة التاريخية أن تكون موضوعية ؟ إننا لا نعتقد ذلك ؛ فالصورة التاريخية صورة إنسانية ، وكل ما هو إنساني لا يمكن استبعاد القيمة منه ؛ فالقيمة جزء من واقع الإنسان بمعناه الكامل ؛ ولا بد للدارس - بما هو إنسان يحمل قيماً - من أن يتفاعل قيمياً معه ، مهما حاول ، أن يكون موضوعياً . وهذا ينطبق على المؤرخ والتأريخ ؛ إذ المؤرخ إنسان ، وما يؤرخ له إنساني .

قد يقال : ولكن العالم إنسان أيضاً ؛ فهل يعني هذا أن القيمة تدخل إلى حرم العلم ؟ في رأينا نعم . ولكنها من جانب واحد فقط ؛ وهو أن العالم إنسان . والحقيقة ، أننا إذا رجعنا إلى التجارب العلمية الأولى للإنسان ، وجدنا أنها كانت تتعلق بالأمور التي لها مساس بحياته واستمرارها ، من حيث فائدتها وضررها . ومن هنا كان العلم - عدا ارتباطه بالعمل - معرفة للواقع من ناحية ، ومعرفة له من خلال ما ينطوي عليه من نفع وضرر من ناحية أخرى . وإذا كانت المعرفة الواقعية تنطوي على جانب من الموضوعية ، فإن معرفته من خلال النفع والضرر ، تنطوي على جانب من القيمة ، التي لا بد من افتراضها مسبقاً من الناحية الوجدانية ؛ ليتمكن تحقيقها في عمل من الأعمال . وهذا يعني ، أن المعرفة الأولى كانت مزيجاً من الموضوعية والتقوم ، وأن العلم حاول أن يتخلص في خلال تطوره ، من أحكام القيمة المختلطة بأحكام الواقع ، التي كانت ظاهرة في أحكامه الأولى . ولكن ، هل نجح العلم في ذلك ؟ وإذا سلمنا جدلاً بأنه تمكّن من التخلص من ازدواجية الموضوعية والتقوم ، في مجال العلوم الطبيعية ؛ فهل يمكننا أن نسلم بمثله في مجال العلوم الإنسانية ، ولا سيما التاريخ ؟

إن من يرجع إلى الأنظمة الاجتماعية التي سار عليها الإنسان منذ القديم حتى الآن ، يرى أن الكثير منها لم يقم أو يستمر إلا لما ينطوي عليه من نفع للجماة التي تتبناه . وإذا كان النفع يعني القيمة ؛ فكيف يمكن للدارس أن ينفذ إلى حقيقة هذه الأنظمة ، من دون النفاذ إلى القيمة التي تقوم على أساسها ؟ ثم ألا تتطلب الموضوعية هنا منه ، أن ينفذ هذا النفاذ ؟ ولكن ، هل يمكن أن ينفذ إلى هذه القيمة ، من دون عقلية تقويمية ؟ إننا لا نعتقد ذلك . وهذا يجعلنا نرى أن القيمة ضرورية لفهم العلوم الإنسانية - ومنها التاريخ - وإقامتها ؛ مثل ضرورة الموضوعية لها . وهذا يعني ، أن هذه العلوم قائمة على الموضوعية والتقوم معاً . هذا إذا افترضنا أن الموضوعية ذاتها ، لا تفترض التقوم هي الأخرى أيضاً ! .

وإذا حصرنا أنفسنا في مجال الدراسة التاريخية ، وجدنا أن التقوم - شأنه شأن الموضوعية - يقتضي من المؤرخ

الخروج من عالم قيمه، وتبني القيم التي تسود الأمم التي يؤرخ لها، في سبيل تحقيق الموضوعية بما هي قيمة علمية. إن هذا الخروج فعل ينطوي على الحرية والحمية: حرية الخروج من عالم القيم الشخصية، والتشبث بقيم المجتمعات التي هي موضوع دراسته، بما هي قيم؛ وحرية التخلي عن حتمياته الثقافية الشخصية؛ والتشبث بحتميات ثقافة هذه الأمم التي يؤرخ لها، بما هي قيم أيضاً. ولكن هذا الفعل يتم على أنحاء مختلفة لدى المؤرخين؛ فالقدرة على الخروج من الحتميات الشخصية، وتبني حتميات الأمم التي يؤرخ لها، تتعرض للنقص والتام. وهذا يعني، أن حرية المؤرخ تتدخل إلى حد كبير في إنشاء الصورة التاريخية التي هو بصدد إنشائها. وهذا يضيف الحرية عاملاً في إنشاء العلوم الإنسانية، إلى جانب عاملي الموضوعية والتقوم؛ وكنا بيننا ذلك من قبل.

خاتمة - قيمة الصورة التاريخية

وبعد، ما قيمة الصورة التاريخية، إذا كان هذا شأنها؟ إن هناك - كما رأينا - فارقاً بين الحقيقة التاريخية والصورة التاريخية؛ وهو شبهه بالفارق بين الصورة الفوتوغرافية واللوحة الفنية. ولكنه أبعد تأثيراً في حياة البشرية. لأن بني البشر يظلون يرجعون إلى الصور التاريخية التي صورها مؤرخوهم؛ فيتفحصونها حيناً، ويستلهمونها حيناً آخر، عساها تقدم لهم زاداً فكرياً في سعيهم في حياتهم، وفي توجيههم نحو المستقبل.

وهنا نلاحظ، أن الصورة التاريخية ليست الحقيقة التاريخية بمعنى الواقع التاريخي؛ بل الحقيقة التاريخية بالمعنى الذي يتضمن عمل الذات فيها؛ أي الحقيقة بما هي قيمة. ولكن القيمة هنا ليست قيمة الحقيقة فقط؛ بل قيمة الخير وقيمة الجلال أيضاً. إن هناك قيمة الخير؛ لأننا نبحث في الصورة التاريخية دائماً، عن العبرة التاريخية، أو المغزى التاريخي، من الحادثة التاريخية التي نكون بصدها؛ سواء أظهر المؤرخ هذه العبرة أم لم يظهرها. وهي كثيراً ما تصطبغ بالصبغة الأخلاقية؛ ويؤدي الأمر بنا إلى تصور أن الشر أو الخير هو الذي يسود العالم وتاريخه. وفضلاً عن ذلك، فالمؤرخ حينما يقدم لنا صورة تاريخية عن حقيقة تاريخية؛ فهو كثيراً ما يخلع عليها من ذوقه وخياله، ما يجعلها شبيهة باللوحة الفنية؛ إنه يراعي التوازن بين جوانبها، ويسعى إلى تقديمها في صورة متناسقة جميلة؛ كما يفعل الرسام في رسم لوحته؛ قاصداً من وراء ذلك إلى أن يستحث خيالنا، من أجل بعث الحادثة التاريخية حياة أمامنا.

وهكذا نجد، أن الصورة التاريخية أفقر من الواقعة التاريخية من جهة، وأغنى منها من جهة أخرى؛ إنها أفقر، لأنها تحمل كثيراً من الوقائع التفصيلية التي لا ترى لها أهمية؛ وهي أغنى، لأنها تضيف إلى الحقيقة قيمتي الخير والجمال.

وهنا تبدو قيمة الصورة التاريخية، على الرغم من بعدها إن قليلاً أو كثيراً عن الحقيقة التاريخية. إنها تساعدنا على التوجه نحو المستقبل، من أجل صنع التاريخ، مزودين بعبرة الماضي، في جو مشبع بالقيم الإنسانية العليا. إن

أكبر درس للتاريخ، هو أنه يمكننا من صناعة التاريخ؛ ويمكننا ونحن نصنعه من صناعة الإنسانية .

والحقيقة، أن الإنسانية تصنع ذاتها باستمرار، وفق قطبين: أحدهما يمثل ماضيها؛ والآخر يمثل مستقبلها؛ مستلهمة قيم الحق والخير والجمال. وهي بين الماضي والمستقبل، حاضراً متحركاً باستمرار، يحمل ماضيه، ويتطلع إلى مستقبله. رائدها الأول والأخير، أن تستفيد من تجاربها السابقة، في محاولة لتجاوز النقص وبلوغ الكمال. ولكنها لا تصنع نفسها في الحقيقة، وفق أنموذج واحد؛ بل وفق أنموذجات متعددة مختلفة في كثير أو قليل، أبدعتها المجتمعات الإنسانية المختلفة على غير مثال؛ وعبر عنها المؤرخون في مختلف الأصقاع والأزمان، في صورٍ تاريخيةٍ تبرز فيها الذاتية والموضوعية.

بيد أن الأنموذجات التي تتطلع المجتمعات إليها - مستهدة بتجاربها التاريخية - تمثل ضمايرها في حالتها الحركانية (الديناميكية). وبما أنها تتطلع - بالقوة - إلى أنموذج موحد، كان لا بد لهذا الأنموذج من أن يقتني بتجارب المجتمعات الإنسانية المختلفة؛ فيمثل ضمير الإنسانية الموحدة تمثيلاً يظل بالقوة، ولا ينتقل إلى الفعل إلا بالتدريج، من دون أن يصبح فعلاً خالصاً. وهذا هو الذي يجعل أفعال بني البشر تنزع إلى الدوران حول مركز غير ثابت؛ ولكنه يقترب باستمرار، من أن يصبح ثابتاً. هذا المركز هو مركز دائرة الخير والشر، الذي تحاول ضماير الأفراد والأمم فيه، أن تتلاقى في ضمير واحد، نستطيع أن ندعوه ضمير البشرية. إن عدم ثبات هذا المركز هو الذي يجعل الأفراد - بل الأمم أيضاً - يعيشون بلبلة أخلاقية يلتبس فيها الخير بالشر، ويؤدي إلى سوء تفاهم بين الأمم، كثيراً ما ينتهي بكوارث شديدة. وإذا كان لنا أن نأمل من التاريخ شيئاً، فهو أن يعلمنا كيف تتلاقى على الخير دون الشر. وهذه مهمة خطيرة نلقيناها على عواتق المؤرخين الذين يرسمون لنا الصور التاريخية. إن المؤرخين إذا أحسنوا رسم هذه الصور، ساعدونا على تبين الحق من الخطأ، والخير من الشر، والجمال من القبح. وعندئذ يقترب المركز الذي تدور حوله أفعال بني البشر، من أن يصبح ثابتاً؛ فيمهد الطريق أمام أطفال المستقبل، لكي يكتسبوا العادات المؤدية إلى عيشهم معاً بسلام وسعادة.

ولكن الصورة التاريخية لا تلبث أن تبين لنا، كيف تنقلب أخلاق الأفراد والأمم، إلى تقاليد مختلفة، في المجتمعات المختلفة، تحاكي في انسجامها مثال الجمال الأعلى باستمرار، من خلال احتكاك المجتمعات بعضها ببعض، الذي يؤدي إلى تنقيح هذه التقاليد، وجعلها ترتفع إلى المثال الأخلاقي الأعلى، الذي توحد مع المثال الجمالي الأعلى؛ حيث تنقلب ضروب السلوك الإنسانية هي الأخرى، إلى تقاليد إنسانية هي أقرب إلى الأخلاق المثالية. عندئذ، تتلاشى الاختلافات الأخلاقية، ويصبح المثال الأعلى الذي تتطلع إليه الإنسانية ومجتمعاتها المختلفة، واقعاً عاماً، يتوحد فيه الحق والخير والجمال.

وذاكم هو درس التاريخ الأكبر، الذي تقدمه لنا الصور التاريخية، التي أدرك مؤرخوها مهمتها الحقيقية خير إدراك.

الحواشي

- (١) اندريه لالاند: (André Lalande): معجم الفلسفة الفني والنقدي، Vocabulaire technique et critique de la philosophie، الطبعة الخامسة، مادة حقيقي Vrai منشورات الـ P.U.F. باريس (١٩٤٧).
- (٢) المصدر السابق: تحت المادة.
- (٣) ريمون آرون (Raymond Aron): دخل إلى فلسفة التاريخ، Introduction à la philosophie de l'histoire، الطبعة الخامسة، ص ٣٩٠، منشورات غاليليا، باريس (١٩٤٨).
- (٤) ر. ج. كولنجود: فكرة التاريخ، ص ٤٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٦١).
- (٥) يمكن تعيين زمان حدوث هذه المستحاثات - وبالتالي معرفة أزمته انتشار هذه النباتات والحيوانات على سطح الأرض - بتعيين نوع الصخور الرسوبية التي تحجرت فيها؛ ثم تعيين عمر هذه الصخور، من خلال حساب الزمان الذي تكوّنت فيه المواد ذات النشاط الإشعاعي، التي وجدت في الطبقة الأرضية المنتمة إليها هذه النباتات والحيوانات المتحجرة.
- (٦) نيقولا برديايف (Nicolas Berdiaeff): معنى التاريخ Le sens de l'histoire، ص ١٠، منشورات أوبييه باريس (١٩٤٨).
- (٧) ١. هـ. كار (E. H. Carr): ما التاريخ؟ What is History؟ ص ٢٩ - ٣٠، منشورات Penguin Books، أستراليا (١٩٦٤).
- (٨) پول فاليري: خطبة في التاريخ، في كتاب: النقد التاريخي، ص ٣٠٢، وهو مجموعة من المباحث الفكرية في التاريخ، ترجمها عبد الرحمن بدوي، ونشرتها دار النهضة العربية بالقاهرة (١٩٦٣).
- (٩) المصدر السابق، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.